مجلة تراثية فصلية محكّمة

تصدر عن وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

هيأة التحرير

مدير التحرير

د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

الهيأة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديثي

أ.د. كمال مظهر

أ.د. فائز طه عمر

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطلبي

الاستاذ حسن عربيي

التصحيح اللغوي

سليم سلمان

نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان العامري

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة

- الأعظمية -

ص. ب : ٤٠٢٢ بغداد

جمهورية العراق

هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤

فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: ديناران، الإمارات: ٢٠ درهماً، اليمن: ٢٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٢ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: ديناران. المغرب: ٢٠ درهماً.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية. في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

www.dorat-ghawas.com

حزنان ..... د. محمد حسين الاعرجي ٣

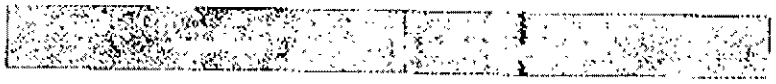

تأثير اللغة العربية في اللغة الرومانية ..... جورج غريغوري ٤-١٢

الحوار الاخير مع رائد علم
الاجتماع في العصر الحديث ..... عبد الجبار السامرني ١٣-١٨

دور الشفاء واثرها العلمي في بغداد
خلال العصر العباسي ..... د. فريال داود المختار ١٩-٢٩

العلاقات الدبلوماسية العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الاول ..... موفق سالم الجوادي
د. عبد المنعم رشاد ٣٠-٣٧

قصة ثور الوحش- عند شعراء الطبقة الاولى-
ما بين التطور والانفتاح الرمزي ..... ايمان محمد ابراهيم العبيدي ٣٨-٥٤

ما لم ينشر من شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤هـ) .. صنعة د. محمد عويد محمد ٥٥-٥٨

عندما مصر العرب بلاد البرتغال اطلقوا على مدينة (كالة)
اسم البرتقال ثم عمموه على المملكة ..... مركز الانماء القومي ٥٩-٦٢

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠هـ)
القسم الثاني ..... تحقيق عباس هاني الجراخ ٦٤-٨٧

فصول اخوانية للجاحظ في العقد الفريد
لم ترد فيما طبع من آثاره ..... د. يونس أحمد السامرائي ٨٨-٩٨

مصادر بريطانية عن الوطن العربي ..... ترجمة كاظم سعد الدين ٩٩-١٣١

قراءة في بائية البحتري في الاعتذار من الفتح
بن خاقان وعتابه ..... أ. د. فائز طه عمر ١٣٢-١٣٩

كوركيس عواد ١٩٠٨-١٩٩٢ حياته وآثاره ..... د. عبد الله عبد السوداني ١٤٠-١٥٠

www.dorat-ghawas.com

قراءة في بائية البحتري
في الاعتذار من الفتح بن خاقان وعتابه

أ . د. فائز طه عمر
كلية الآداب - جامعة بغداد

سنحاول، في هذه السطور، قراءة واحدة من أجمل قصائد الشاعر الكبير البحتري (٢٨٤هـ) ومن أكثرها تعبيراً عن شاعريته، قراءة تستكنه قصده من انشائها، ذلك أن، من بين أهداف القارىء من قراءته أي نص، إنما هو الوقوف على قصد مبدع النص، إضافة الى الاستمتاع بمزايا النص الجميلة، والمؤثرة، بعد رصدها ومحاولة تحليلها، وسوف نرى أن تحقيق معرفة القصد، من النص الذي نزمع دراسته، ليس بالأمر العسير، وإن كان عسيراً في غيره، فهو، في هذه القصيدة، أمر لا يتطلب جهداً كبيراً، إذ تفصح عنه ظروف انشاء القصيدة، على أن البحتري قدم لقصيدته هذه بأبيات غزل ونسيب تحتاج الى قراءة خاصة. يمكن وصفها بأنها قراءة تأويل، فهي لا تقبل التفسير الظاهري، بل تحتاج الى تاويل يتجاوز ظاهرها ويفصح عن قصد الشاعر منها، من خلال أجواء القصيدة عامة، والغرض من قولها، لذا ستكون قراءتنا أبيات المقدمة الغزلية والنسيبية، لهذه القصيدة قراءة تتجاوز الدلالات المباشرة والسطحية لها، وتحاول، من خلال ربطها بالقصيدة كاملة، ان تبين عن الدلالة الرمزية لها. بيد أن انتقال الشاعر، بعد هذه الابيات الى الابيات التي افصح بها عن غرضه من انشائه القصيدة هذه، جعل الدلالات المتحققة فيها دلالات واضحة، بل تبدو مباشرة على أنها ليست هابطة، مما يعني أن قراءتنا الابيات التي تراوحت بين الاعتذار والعتاب، مما يمثل غرض القصيدة ستكون قراءة غير تأويلية لوضوح القصد منها، عليه ستكون قراءتنا القصيدة هذه على مستويين، مستوى تأويلي، ومستوى ظاهري، تبعاً لما ذكرناه، سيردان متداخلين متضافرين، منطلقين من اعتقادنا بوحدة هذه القصيدة عضوياً وموضوعياً، مما ستؤكده السطور القابلة.

ولعل، من المناسب واستعانة على القراءة، أن نذكر أهم ما قيل في شاعرية البحتري، واقتداره على الاعتذار، والعتاب، في شعره. فقد وصفه الشاعر الكبير أبو تمام (٢٣١هـ) بأنه أمير الشعراء من بعده[1]. وقال الشاعر الناقد عبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ): (لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلها، وقصيدته في وصف البركة واعتذاراته في قصائده الى الفتح بن خاقان التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان، مثلها، وقصيدته في ابن دينار التي وصف فيها ما لم يصفه احد قبله ووصفه حرب المراكب في البحر، لكان أشعر الناس في زمانه.)[2]، فربما كانت

www.dorat-ghawas.com

اشارة ابن المعتز الى ابداع البحتري في قصائده الاعتذارية من الفتح بن خاقان (٢٢٧هـ) أقدم ما قيل بحقها، وقد أكد أبو بكر الصولي (٣٣٥هـ) الذي سمع هذا القول ونقله، صدق ابن المعتز في قوله في حق اعتذارات البحتري[١]. وأثنى الناقد أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (٣٧٠هـ)،في مواضع كثيرة من كتابه (الموازنة ...)[٢]، على شعر البحتري، وعد طريقة البحتري في الشعر، خير ما يمثل عمود الشعر[٣]، وطريقة العرب، فضلاً عن اقراره بأن ادوات صناعة الشعر وأركانها، إنما تظهر جلية في شعره، بقوله: (وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسناً ورونقا، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد، وذلك مذهب البحتري، ولهذا قال الناس: لشعره ديباجة ...)[٤]. وخاطب الناقد القاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) قارىء كتابه (الوساطة ..) مشيراً الى مزية شعر البحتري، بقوله: (وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين.)[٥]، بل هو يذهب الى أبعد من هذا، في خطاب قارىء كتابه الذي يريد معرفة الفرق بين المصنوع والمطبوع من الشعر، فيشير عليه بقراءة شعر البحتري، لكونه خير ما يمثل الشعر المطبوع إبداعاً وقوة تأثير، بقوله: (ومتى أردت أن تعرف ذلك عياناً، وتستثبته مواجهة، فتعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع، وفضل ما بين السمح المنقاد، والعصيّ المستكره، فاعمد الى شعر البحتري، ودع ما يصدر به الاختبار، ويعد في أول مراتب الجودة، ويتبين فيه أثر الاحتفال،وعليك بما قاله عن عفو خاطره، وأول فكرته، كقوله:

ألام على هواك وليس عدلاً

إذا أحببت مثلك أن ألاما ...)[٦]

ثم أنه، بعد ذلك يورد أمثلة أخرى من نسيب البحتري، فيعلق عليها بما يظهر سماتها، ثم يذكر أن هذا لا يصدق على النسيب حسب، بل على الاغراض الاخرى، كالمديح، مستشهداً له بأبيات من قصيدته،موضوع بحثنا، مما يظهر مكانتها في النقد العربي، يقول:(ثم انظر: هل تجد معنى مبتذلاً ولفظاً مشتهرا مستعملاً ! وهل ترى صنعة وابداعا، أو تدقيقاً أو اغرابا ! ثم تأمل كيف تجد نفسك عن انشاده، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك، ومصورة تلقاء ناظرك. فان قلت: هذا نسيب والنفس تهش له، والقلب يعلق به، والهوى يسرع اليه، فأنشد له في المديح قوله:

بلونا ضرائب من قد نرى

فما ان رأينا لفتح ضريبا ...)[٧].

ويعلق أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) على رأي ابن المعتز السابق ذكره، في اعتذارات البحتري، فيؤكد أنه قد بلغ، في هذا الغرض، مبلغ النابغة الذبياني، حتى لقب بالنابغة الثاني، بقوله: (ولا أعرف أحداً، من المحدثين، بلغ مبلغه فيه ﴿ أي الاعتذار ﴾[٨] الا البحتري، فانه قد أجاد القول في صنوفه واحسن وأبلغ، ولم يذر مزيداً، حتى قال بعضهم، هو، في هذا النوع، النابغة الذبياني.)[٩]،وعده الناقد ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ) شيخ الصناعة وسيد الجماعة في مقدرته على عتاب الاشراف، مستشهداً، لذلك، بأبيات من القصيدة البائية، موضوع بحثنا، مما يعزز مكانتها، إذ يقول: (وأحسن الناس طريقاً، في عتاب الاشراف، شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة يقول:

يريبني الشيء تأتي به

وأكبر قدرك أن أستريبا)[١٠].

وتحدث الناقد والبلاغي عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)عن البحتري، بلغة نقدية دقيقة، مشيراً الى قدرته الفنية على جعل الدقيق والبعيد من المعاني مألوفاً سهلاً، بقوله:(وانك لا تجد شاعراً يعطيك، في المعاني الدقيقة، من التسهيل والتقريب، ورد البعيد الغريب، الى المألوف القريب، ما يعطي البحتري ويبلغ، في هذا، مبلغه)[١١]. بل هو يرى، في شعر البحتري، مثالاً أو أنموذجاً على ما يحدثه الشعر من تأثير في النفوس، لما يضمه من مزايا وخصائص فنية خاصة، يدعو عبد القاهر الى تدبرها ومعرفتها، من خلال دراسة النص الشعري دراسة تحليلية عميقة، وهو إذ يحقق هذا المنهج في تحليل النص الشعري، يأتي بأبيات من القصيدة، موضوع هذا البحث، مثالاً، بقوله: (فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر الى

www.dorat-ghawas.com

حـركات الأريحية بم كانت، وعند ماذا ظهرت، فأنك ترى عياناً أن الذي قلت كما قلت، اعمد الى قول البحتري.

بلونا ضرائب من قد نرى

فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا

ت عزما وشيكاً ورأيا صليبا

تنقل في خلقي سؤدد

سماحا مرجى وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخاً

وكالبحر إن جئته مستثيبا

فاذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا من نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر)[٣]، ثم يجيب عبد القاهر عن اسئلته هذه، بتحليله هذه الأبيات، تحليلاً على وجازته، جاء عميقاً، طارحاً محاولة نقدية مهمة لأرساء منهج تحليلي في دراسة النص الأدبي يبدأ، وينتهي، منه وبه. وهو تحليل سيفيد هذا البحث .

وهكذا تجد كتباً نقدية أخرى تضم آراء في شعر البحتري، لا تخرج عما ذكره هؤلاء النقاد الكبار، في ما أوردنا لهم من نصوص، مما يغري بقراءة شعر هذا الشاعر الكبير، وهم قد خصوا قصيدته البائية، في الاعتذار من وزير المتوكل، المقتول معه، الفتح بن خاقان، بما تستحقه من تقريظ، ومطلعها:

لوت بالسلام بناناً خضيبا

ولحظاً يشوق الفؤاد الطروبا[٤]

فأقبلنا على قراءة أبياتها الثلاثين، فوجدناها تستحق كل ما قيل فيها، فلا ضير من قراءتها قراءة تبين مزاياها وخصائصها، مبتدئين ومنطلقين مما تتمتع به من وحدة عضوية، وموضوعية، تربط اقسامها وأبياتها، مما يمثل (فرضية) هذا البحث، سنحاول اثباتها.

فرضية البحث:

يزعم هذا البحث أن هذه القصيدة تتسم بوحدة عضوية بينة بين ما يبدو فيها من اقسام ظاهرة،استطاع البحتري، بأبداعه، أن يحققها فيها، فهذه الوحدة التي تستمد صواب وجودها، من وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر[٥]. تتجلى، في هذه القصيدة التي كان غرض الاعتذار والعتاب محورها، وشعور التحسر، على ما حدث بين الشاعر والفتح بن خاقان من قطيعة، هو الشعور المهيمن عليها، إذ تكتنف، الشاعر رغبة عارمة، في أعماقه، في عودة صفاء الود بينهما، إذ إن علاقة البحتري بالفتح، منذ أن بدأت، قوية، مستمرة،حتى بعد أن اصبح البحتري شاعر الخليفة المتوكل (٢٢٧هـ)، بمساعدة الفتح وتعضيده[٦]، فقد استمرت علاقتهما حسنة نحو ثلاث عشرة سنة، قال في خلالها الشاعر البحتري تسعاً وعشرين قصيدة في مديح الفتح[٧]، عدها استاذنا د. يونس السامرائي قليلة، بأزاء طول مدة صحبتهما، معللاً ذلك بقوله: (وأغلب الظن أن الذي قلل من هذا الشعر هو عدم انقطاع الشاعر الى الفتح[٨]) في هذه السنوات التي شهدت صفاء علاقتهما الذي تؤيده أخبارهما[٩]، معاً، على أن الحساد لم يتركوا هذا الصفاء إلا وكدرود. ذلك أن البحتري (كان يحسد على مكانه منه فيتكذب عليه عنده[١٠].) كما قال الصولي الذي أورد خبرين[١١]، يبينان ما كان يلفق على البحتري (وهو أمر ليس بالغريب، إذا ما علمنا أن كل ذي نعمة محسود.)[١٢]، ويبدو أن ما حدث أخذ يشكل خطرا على البحتري[١٣]، كان هو أقوى دوافعه الى أن يقول قصائده الاعتذارية والعتابية في الفتح، فهو إن كان يرى نفسه غير مذنب، لابد من أن يعتذر عن ذنب لم يفعله على أن الفتح يظنه، ليزيل هذا الظن، ثم يعاتب من صدق، فيه، دعاوى الحاسدين عليه، مع صدق حبه له، فكانت قصيدته التي نحن بصددها، من أقوى تلك القصائد التي يبدو أنها، مع اعتذاراته الاخرى، لقيت (صدى حسنا لدى الفتح، فرضي عنه وآستأنف علاقته من جديد.)[١٥] حتى استطاع البحتري أخيراً (أن يحتفظ بعطف المتوكل والفتح بن خاقان، وأن يظل شاعر دولتهما الى آخر أيام حياتهما.)[١٦].

وفي ظل ظروف القطيعة، بين البحتري والفتح بن خاقان، التي أججت مشاعر الخيبة في نفس البحتري، فضلاً عن الخوف، والحزن، والرغبة العارمة في عودة الود صافيا بينهما، قال

www.dorat-ghawas.com

البحتري بائيته الرائعة متحسراً، محققا فيها وحدة عضوية ذات نسيج محكم، سنحاول بيان مظاهرها.

وحدة القصيدة:

يظهر البحتري، في المقدمة التقليدية الغزلية والنسيبية للقصيدة، على نحو رمزي تصويري، شدة تعلقه بذكرى صفاء علاقته بالفتح، في سياق سرد حكاية حدث فيها أن امرأة يزعم البحتري أنها كانت ترتبط به بعلاقة غرامية قوية، قد زارته زيارة سريعة بعد فراق، بعد أن أومأت اليه ببنانها الخضيب، ولحظها الذي اشعل، في قلبه نار الشوق الى ما كان بينهما:

لوت بالسلام بنانا خضيبا

ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

وزارت على عجل فاكتسى

لزورتها (أبرق الحزن) طيبا

فكان العبير بها واشيا

وجرس الحلي عليها رقيبا

فراح الشاعر يبث حسرته وشكواه، عند كل وصف يذكره، لهذه الحبيبة الزائرة التي اقبلت بأزكى عطر شمل المكان، حتى بعد مغادرتها،فبدا واشيا نقل خبر وجودها، وهي كانت تتزين بحلي كثيرة، تظهر اصواتاً متساوقة مع سرعة ايقاع حركتها السريعة في زيارتها، فبدت كالرقيب عليها. ويبدو، من هذه الاوصاف، أن هذه المرأة قد قصدت إضرام نار الشوق اليها، في قلبه، بما تزينت به وتعطرت، مما جعل الشاعر يلوذ الى ذاكرته التي ربما تعوضه ما لم يستطع الحصول عليه الآن الذي لن يهب له سوى ذكرى يتباهى بها الشاعر، وهو محروم مما كانت تعبر عنه، فما كان بين الشاعر وهذه المرأة أمنية، اليوم في ظل الحرمان الذي يعيش به الشاعر الذي أبى الا أن يؤكد ما كان بينه وبين هذه المرأة بصورة حسية صارخة يظهر ما يدعيه من قوة علاقتهما لماضية، بقوله:

ولم انس ليلتنا بالعنا

ق لف الصبا بقضيب قضيبا

ففي هذا البيت الذي عد احود بيت قيل في العناق[٢٧]، في ظاهره، ظهر الشاعر وحبيبته متعانقين اشد عناق، متلفين، على بعضهما، التفاف الغصن على الغصن عند هبوب ريح الشمال، إذ يومىء البحتري، بل يرمز، بلهفة وتحسر، الى ماضي علاقته بالفتح وقوتها. ويبدو أن هذه الذكريات قد عصفت بمشاعر البحتري وجعلته حائراً، فلا هو قادر على الامساك بها واعادتها، ولا على نسيانها، إن سكت هاج حبه، وان شكا هاج دواعيه وسببه:

سكوت يجر عليه الهوى

وشكوى تهيج البكا والنحيبا

مما يرمز به الى حاله، بعدما تكدر ما بينه وبين الفتح فهو متأزم حائر بين أن يبقى ساكتا فتزداد الامه، أو أن يشكو فيتكلم فيزداد الما، حتى أنه يبكي، إن شكا، وينحب اي يبكي بصوت عال، لشدة ما يعانيه على أن صبره قد نفد، وأفلت منه زمامه، فراح يصرخ بالشكوى، مناجيا حبيبته:

عنت كبدي قسوة منك ما

تزال تجدد فيها ندوبا

فما جرى بينه وبين الفتح قد كان ثقيلا وقد آله وأضناه، وجعله لا يقوى ولا يحتمل القسوة التي بدت من الفتح، والتي تركت، في نفسه، آلاما لا تمحى، كالندوب التي تتركها الجراح العميقة التي لا تبرأ الا وتترك آثاراً ثم يحاول البحتري أن يبرىء نفسه مما ألحق به، من تهم ودعاوى أدت الى تغير الفتح عليه، رامزاً الى ذلك بتغير حبيبته عليه، من شيء ليس له عنه من محيص، فالشيب عد، منها، ذنباً اقترفه، جعلها تجفوه وتهجره، في سياق تداعيه مع الذكرى التي هاجت في أعماقه، إذ يقول:

وحملت عندك ذنب المشيـ

ـب حتى كأني ابتدعت المشيبا

فهنا يذكر البحتري أن ما جرى لا ذنب له فيه، بل هو امر الصق به، في ما ادعى عليه حاسدوه من دعاوى، مبعثها الحسد، في تعبير رمزي تصويري رائع.

ويبدو أن هذا البيت، والبيت الذي يليه، والذي هو :

ومن يطلع شرف الاربعيـ

ـن يحيي من الشيب زورا غريبا

www.dorat-ghawas.com

كانا تمهيداً للانتقال من المقدمة الغزلية ذات الدلالة الرمزية التي صورت تقلب الحال بين الشاعر والفتح، الى مديحه ليكون مفضياً، على نحو تلقائي، الى عتابه، فالبحتري يعتقد بأن الذي يستحق اللوم ليس هو بل من يعاتبه، الذي صدق فيه كيد الاعداء. وقد استغرق المديح ستة أبيات خالصة في معاني المديح، أولها قوله:

بلونا ضرائب من قد نرى

فما إن رأينا لفتح ضريبا

ويبدو المديح ضرورة لازمة، وتمهيداً لابد منه لعتاب الاشراف والكبار، ثم يمهد الشاعر، في بيت سابع، لغرض العتاب، بقوله:

فديناك من أي خطب عرا

ونائبة قد أوشكت أن تنوبا

ففيه يعدل الشاعر من الحديث عن الفتح بضمير الغائب،في مدحه، الى الخطاب المباشر له، في عتاب رائع مؤثر، بداه بالبحتري بالقول:

وإن كان رأيك قد حال في

فلقيتني بعد بشر قطوبا

مما يستحق به اعجاب النقاد الذي أشرنا اليه في السطور السابقة، ولا سيما في طريقته في العتاب وفي الاعتذار، وفي الدخول اليهما، والتمهيد لهما.

وقد استغرقت أبيات الاعتذار، وما يتخلله من عتاب يبدو أقرب الى التعبير عن حال البحتري ومشاعره، ما تبقى من أبيات القصيدة، تصاعدت فيها مشاعر الشاعر، وظهر شعوره بالمرارة مما حدث، على نحو جعله يقرن سخط الفتح، عليه، بالفراق الذي يقصد به الموت فبدا الفتح واحدا من أحبته الذين تأبى الاقدار الا يودعهم واحداً واحداً، ويكثر حزنه عليهم، ويشقق جيوبه كمداً على فراقهم، مما جاء في هذه الابيات الدامعة:

أيصبح وردي في ساحتيـ

ـك طرقاً ومرعاي محلاً جديبا

أبيع الاحبة بيع السئوام

وآسى عليهم حبيباً حبيبا

ففي كل يوم لنا موقف

يشقق فيه الوداع الجيوبا

وما كان سخط الا الفراق

أفاض الدموع وأشجى القلوبا

فهذا الحزن الذي يلف هذه الابيات هو وراء ما فيها من صور أبدع فيها البحتري، فالانفعال يحرك الخيال الذي يتولى انتاج الصور الشعرية التي تمكن بها البحتري من أن يستوعب مشاعره، مستعملاً، في هذا، لغة الغزل، مردداً ألفاظه، وهو أمر ليس بالمستغرب، إذ (إن الصلة قائمة نفسياً بين الغزل والعتاب، فكلاهما قائم على الانفعال والشعور المرهف) [٢٨]. ثم ان البحتري بعد ذلك، يعلن تعلقه بهذا الرجل الذي فتح له طريق الغنى، فلم يقطع ما بينهما،على الرغم من كل ما حصل، بل إنه قال إنه سيصبر على فراقه، وغضبه عليه، وسوء ظنه به، حتى يعود الصفاء بينهما، مؤكداً أنه لو يعرف، لنفسه ذنباً اقترفه بحق الرجل، لما تردد عن اعلان التوبة عنه، مما جاء في قوله:

ولو كنت أعرف ذنباً لما

تخالجني الشكُ في أن أتوبا

سأصبر حتى ألاقي رضا

كَ إمّا بعيداً وإما قريبا

أراقب رأيك حتى يصحّ

وأنظرُ عطفك حتى يتوبا

إن ما اشرنا اليه من وحدة أقسام القصيدة هذه، ينبهنا على أن البحتري يحسن التخلص من موضوع لآخر من الموضوعات الظاهرة، لهذه القصيدة، مما لمح القاضي الجرجاني بعكسه [٢٩].

مزايا اسلوبية للقصيدة:

لعل من أبرز مزايا أسلوب البحتري وطريقته، في هذه القصيدة، وفي شعره عامة، ألفاظها الفصيحة البعيدة عن الوحشية والعامية، والتنافر، وغير ذلك، فضلاً عن انكشاف معانيها الذي لم يلفه ظهور الرمز في مقدمتها الغزلية فقد شحنها البحتري بدلالات رمزية، صور بها، ما حصل في علاقته بالفتح بن خاقان ومشاعره بأزاء ذلك، وإن هذه الدلالات تتضح بعد تأمل وتأنٍ، وإحاطة بظروف قول القصيدة، كما ذكرنا.

www.dorat-ghawas.com

وقد حقق البحتري قدراً من الايقاع الموسيقي في أبيات القصيدة، زائداً على الوزن الذي انتظم على بحر (المتقارب) بوسائل عدة، منها التكرار الصوتي بالحرف، أو باللفظة المفردة، أو تكرار تركيب بعينه، مما تحقق في البيت الثالث عشر.

فكالسيف إن جئته صارخاً

وكالبحر إن جئته مستثيبا

فقد كرر (كاف) التشبيه في موضعين، مما أشار اليه عبد القاهر[٣٠] الذي عدّ هذا التكرار من مزايا هذا البيت، فضلاً عن تكراره أداة الشرط وفعله (إن جئته) تنغيماً وتأكيداً للمعنى. ثم إنه زيادة الايقاع في ما أتى به من جناس، في أبيات عديدة، منها البيت العاشر الذي ورد فيه جناس مطلق بين (ضرائب) و(ضريبا) وفي البيت السادس عشر استعمل الجناس الاشتقاقي في (نائبة) و(تنوبا) وفي البيت الثامن عشر (خيبت) و(تخيبا) وفي البيت التاسع عشر (يريبني) و(استريبا).

ومن أبرز الخصائص الاسلوبية التركيبية المهيمنة على هذه القصيدة، ظهور الخبر في جميع أبياتها، عدا البيت الرابع والعشرين.

أيصبح وردي في ساحتيـ

ـك طرقا ومرعاي محلا جديبا

الذي كان تركيبه تركيبا استفهاميا مجازيا غرضه تقرير ما حصل واظهار العجب والجزع منه. فغرض هذا الاستفهام غرض خبري، مع كون اللفظ طلبيا.

ولعل من مسوغات هيمنة الخبر على أبيات القصيدة هذه هو طابعها السردي الذي وظفه الشاعر في حكاية الاحداث والمشاعر والاوصاف التي اسبغها على ممدوحه، وعواطفه تجاهه، وهو يعاتبه أو يعتذر منه. والسرد، في حقيقته، اخبار عن حدث أو حال أو غير ذلك.

وقد اظهر البحتري قدرة على التصرف المقصود المنسجم مع المعنى، في أبياته، من ذلك ما ظهر من تقديم لما حقه التاخير الذي جاء في عدد من أبياته، لتأدية اغراض معينة. فقد قدم الجار والمجرور على المفعول به، في البيت الأول:

لوت بالسلام بنانا خضيبا لأظهار أن حركة بنانها قد كانت لأجل السلام عليه، لذا حرص الشاعر على ذلك لتأكيد أن السلام له حسب، وفي البيت السابع: عنت كبدي قسوةٌ منك قدم المفعول به (كبدي) على الفاعل (قسوة) لرغبته في إظهار موضع معاناته وشدة وطأتها على كبده.

وأما البيت الثالث عشر: فكالسيف إن جئته فقد قدم فيه جواب الشرط في موضعين، في أول الصدر كما جاء، وفي أول العجز (وكالبحر ...) قاصداً، من هذين التقديمين، بيان أهمية السيف، وأهمية البحر، مما يدل على دفتي الفتح: الشجاعة والكرم.

ومن مظاهر تصرف الشاعر في جمله، ومما يمثل مزية اسلوبية، الحذف، فقد حذف من البيت الثالث عشر المذكور، المبتدأ (لأن المعنى لا محالة: فهو كالسيف[٣١] ...) مما قاله عبد القاهر، كذلك المعنى في العجز: فهو كالبحر، وهذا حذف آخر، في بيت واحد، حقق فيه الشاعر الايجاز الموحي الذي ظهر أيضاً في البيت الرابع عشر: (فتى كرم الله أخلاقه ...) فالمعنى على قول، هو فتى. وفي هذا البيت، ورد فتى منكراً، مما يؤدي معنى تخصيص الفتوة بالفتح دون سواه. وقد اشار عبد القاهر الى تنكير كلمة (سؤدد) في البيت الثاني عشر:

تنقل في خلقي سؤدد

سماحا مرجى وبأسا مهيبا

بقوله: (ثم قوله تنقل في خلقي سؤدد) بتنكير السؤدد واضافة الخلقين اليه)[٣٢]. على أنه يؤكد أن تنكير (سؤدد) لا يروق المتلقي دائماً، بل ان الفضل، في ذلك، يعود الى النظم الذي يظهر مزية اللفظ، فيقول: (أنه ليس إذا راقك التنكير في (سؤدد) من قوله (تنقل في خلقي سؤدد) فانه يجب أن يروقك ابدا وفي كل شيء .. بل ليس من فضل الا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تؤم.)[٣٣]. ففي هذا القول اشارة الى مقدرة الشاعر الذي تمكن من وضع الكلمة في موضع ملائم.

وقد استعمل البحتري التشبيه وسيلة فنية، حقق، من خلالها، تحول المعاني المجردة والعقلية الى صور حسية، ليوصلها الى المتلقي قوية، مؤثرة فيه، وربما، لأجل تحقيق المبالغة في عرضها، ولجعل الصورة التشبيهية الحسية شاهداً على ما يدعيه، ايضاً. وأظن أن البحتري قد برع في صنع تشبيهات

www.dorat-ghawas.com

موحية، في هذه القصيدة، مما ظهر في البيت الثالث.

فكان العبير بها واشيا

وحرس الحلي عليها رقيبا

الذي صنع فيه تشبيهين بليغين، بتشبيه العبير بالواشي، وحرس الحلي بالرقيب، دون ذكر أداة التشبيه ولا وجهه، وبتحقيقه قوة علاقة بين المشبه والمشبه به، في التشبيهين، فضلاً عن ذلك، فقد شخص العبير بجعله واشيا، وحرس الحلي، بجعله رقيبا، وهذا تشبيه حسي طريف، تمكن به الشاعر من اظهار ترف حبيبته وغناها وجمالها.

وأبدع البحتري تشبيها آخر أثنى عليه النقاد، كما ذكرنا، في البيت الرابع: ولم أنس ليلتنا في العنا

ق لف الصبا بقضيب فضيبا

فهذا تشبيه بليغ أيضا، اشرنا الى اهمية وجوده، في موضعه، إذ بيّن الشاعر فيه قوة ما كان يربطه من علاقة بهذه الحبيبة، فهو يذكر عناقهما، ذات يوم، على هذا النحو الصارخ، ليظهر قوة هذه العلاقة، وليأتي بشاهد عليها، وقد عد هذا أجود ما قيل في العناق، لأنه (أصاب حقيقة التشبيه، بأجود وأحسن نظم) [٢٤]، وهو تشبيه حسي بطرفيه رسم أمام القارىء صورة مثيرة.

وعندما تحدث البحتري عن حيرته، في البيت الخامس: (سكوت يجز عليه الهوى ...) وجد أن، من المناسب،أن يصور هذه المشاعر بصورة حسية مستمدة من مظاهر الطبيعة، ليرسم اضطرابه وتذبذبه في حاله:

كما أفتنت الريح في مرها

فطورا خفوتا وطورا هبوبا

مما فعله، أيضا، في البيت الثالث عشر السالف الذكر الذي حاول فيه أن يقرب معاني الصفها بممدوحه: (سماحا مرجى، وبأسا مهيبا.) فآثر أن يكون المشبه به حسيا لكلتا الصفتين المعنويتين، فسماحه كالبحر، وبأسه كالسيف، ومع كون هذين التشبيهين مألوفين، أفلح البحتري في توظيفهما، إظهارا وتجسيداً لما يريده ، وقد أورد البحتري تشبيهات أخرى، لا تقل اثراً عما أوردناه، مما نجده في البيت الخامس والعشرين. (أبيع الأحبة بيع السوام)، وفي البيت السابع والعشرين: (وما كان سخطك إلا الفراق) وفي غيرهما.

ومن المناسب ذكر أن البحتري تمكن من صنع عدد من الاستعارات الموحية، ف (ندوبا)، في البيت السابع، قد دلت على أن ما خلفه هجر حبيبته، فيه، إنما هي جراح لا تمحي، وفي البيت السادس والعشرين: (يشقق فيه الوداع الجيوبا) مبالغة في الحزن. فضلاً عن أنه وظف الكناية في تثبيت الدلالات المقصودة، والاتيان ببراهين ملائمة عليها، من ذلك ما جاء في البيت السابع عشر:

وإن كان رأيك قد حال فيّ

فلقيتني بعد بشر قطوبا

فقد كنى البحتري عن السرور والفرح بـ (بشر) وعن الغضب والتجهم بـ(قطوبا)، ولعل ما يقوي دلالة هاتين الكنايتين أنهما حققتا تضاداً بينهما لا يخفى.

والتضاد مثل ظاهرة شعرية لدى البحتري، في هذه القصيدة خاصة، فالثنائيات المتخالفة شملت التضاد، فضلاً عن أنه أورد ثنائيات متماثلة، أو معبرة عن دلالات متقاربة،فالثنائيات، عامة، ظهرت في البيت الخامس سكوت، شكوى وفي السادس: خفوتا، هبوبا، وفي الثاني عشر: سماحا، بأسا، وفي الثالث عشر: السيف، البحر، وفي الثالث والعشرين:مخطئا، مصيبا، وفي الرابع والعشرين: وردي، طرقا. ومرعاي، محلا، وفي التاسع والعشرين: بعيداً، قريبا. وهي جميعها تؤدي معنى الشمول والاحاطة بالمعنى.

إن هذا البحث قد حاول اظهار حقيقة الوحدة العضوية لبائية البحتري، في الاعتذار من الفتح بن خاقان وعتابه، فاستناداً الى قراءة تطلبتها طبيعة هذه القصيدة، مع اشارات موجزة الى أبرز خصائصها الاسلوبية التي اكدت ما قاله اصحاب البحتري في شعره: (وحصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر، وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيراً في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ وصحة المعاني ...) [٢٥]، في سياق استثمار ناجح للوسائل الفنية التي حقق بها الشاعر صورة شعرية مؤثرة.

www.dorat-ghawas.com

هوامش البحث ومصادره

(١) اخبار البحتري: أبو بكر الصولي (٣٣٥هـ). تحقيق وتعليق: د. صالح الاشتر. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م: ٦٩.

(٢) م. ن: ٧٢، ٧٣.

(٣) م. ن: ٧٧.

(٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدي (٣٧٠هـ). تحقيق: السيد احمد صقر. دار المعارف بمصر. ط٢. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢: ١/ ٢، ٤، ٥.

(٥) م. ن: ١/ ٤٠٢.

(٦) م. ن: ١/ ٤٣٥.

(٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه: أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي. مطبعة البابي الحلبي وأولاده. القاهرة. ط٤. ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م: ٢٤ ـ ٢٥

(٨) م. ن: ٢٥

(٩) م. ن: ٣٧

(١٠) التوضيح من الباحث.

(١٠) ديوان المعاني: أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ). مطبعة القدسي. القاهرة ١٣٥٢هـ. ١/ ٩١

(١١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الازدي (٤٥٦هـ): تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. ط٤. ١٩٧٢م. ٢/ ١٦٠، ١٦١.

(١٢) اسرار البلاغة: الامام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤هـ) علق حواشيه: احمد مصطفى المراغي. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. ١٩٣٢: ١٦٧، ١٦٨.

(١٣) دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني. تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة القاهرة. القاهرة. ط١. ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م: ١٢٠.

(١٤) ديوان البحتري: تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي. دار المعارف بمصر. ط٢. ١٩٧٧م: ١/ ١٤٩ ـ ١٥٢.

(١٥) النقد الادبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال. دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة. ١٩٧٢ م: ٢٩٥.

(١٦) اخبار البحتري: ٨٣، ٨٤.

(١٧) البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل: د. يونس احمد السامرائي. مطبعة الارشاد. بغداد. ١٩٧٠م: ١٤٣.

(١٨) م. ن: ٩٦. وانظر: تاريخ الادب العربي (٤) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر. ط٢. ١٩٧٥م: ٢٧٥.

(١٩) م. ن: ٩٧ وانظر م. ن: ٩٦.

(٢٠) أخبار البحتري: ٨٢.

(٢١) م. ن: ٧٨.

(٢٢) م. ن: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢٣) البحتري في سامراء: ١٠٦.

(٢٤) في الادب العباسي: محمد مهدي البصير. مطبعة النعمان. النجف. ط٢. ١٩٧٠م: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢٥) البحتري في سامراء: ١٥٢.

(٢٦) في الادب العباسي: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢٧) الموازنة: ٢/ ١٣٩.

(٢٨) البحتري بين نقاد عصره: صالح حسن اليظي. دار الاندلس بيروت. ط١. ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢٩) الوساطة: ٤٨

(٣٠) دلائل الاعجاز: ١٢١.

(٣١) م. ن: ١٢١.

(٣٢) م. ن: ١٢١

(٣٣) م. ن: ١٢٢. وانظر م. ن: ١٢٢

(٣٤) الموازنة: ٢/ ١٣٩.

(٣٥) م. ن: ١/ ١٨ ـ ١٩.

www.dorat-ghawas.com